تقديم

كتاب أضع توقيعي على أفكاره.. بجوار «أخي الأنبل»

السبعينيات الموارة من القرن العشرين: كنا شبابًا مفتونًا بحب الوطن، ينصهر في حركة طلابية هادرة، نخط حروفنا الأولى في دفتر الثورة، ونخطو خطواتنا الأولى على طريق تحقيق الحلم، كنا واثقين مطمئنين نكاد نمد أيدينا.

كنا ممتلئين باليقين كأنما لو رفعنا أيادينا لطالت أكفنا شمس الحرية والاشتراكية والوحدة، تقدمت خطانا على الطريق، لكن الحلم كان يبتعد كلما مشينا نحوه وينأى كلما سعينا إليه. طال الطريق، تعثرنا وواصلنا. وأتى علينا حين من الدهر كنا فيه قلة يتخطفنا قهر السلطة وتغيبنا ظلمة الزنازين، ويسبنا فقهاء السلاطين، ويتنكر لنا أو يشفق علينا من نحلم معهم ولهم ولا نستطيع الوصول إلا بهم.

لكننا اعتصمنا بحلم لا شفاء منه أعاننا على ضعف قوتنا وقلة حيلتنا وهواننا على الأحباب. نمضي ببطء ولكن إلى الأمام ندعو: يا رب، ونهتف: يا شعب.

استهلكنا قرابة الأربعين عامًا في رحلة شاقة شائقة شائكة نطارد حلمًا عصيًا، مطمئنين أننا على الطريق المستقيم بينما اعتبرنا البعض في التيه لأنهم لم يمتلكوا إيماننا بالله ولا ثقتنا في الشعب.

أربعين عامًا منذ تعمدنا وسط الشعب في انتفاضة 18 و19 يناير 1977 نهتف من أجل الخبز والحرية، حتى لاح لنا حلمنا المراوغ وقد استراح في حضن الشعب متجسدًا وفي أبهى وأنقى وأبقى حقيقة في ميدان التحرير في ثورة 25 يناير 2011 ونحن نهتف من أجل «العيش» والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية.

وكم جربنا على الطريق الطويل أن نواجه لحظات عسر ووهن ونكوص، سمعت فيها نفسي تحدثني بأصداء الحكمة البالغة البليغة المنسوبة للإمام علي ـ رضي اللّه عنه ـ : «يا لطول السفر وقلة الزاد ووحشة الطريق...»، لكنني أبدًا لم أسمع داخلي تتمتها: «... وافتقاد الرفيق»؛ لأن اللّه من بعد مدده الرباني الذي لا ينضب حباني بإخوة رائعين كانوا رفاق الطريق الصعب وصحبة المسيرة العسيرة، كانوا السند من بعد المدد طوال الأربعين عامًا. ولولا هؤلاء الرائعون ما كان بمقدوري، ولا أي أحد منهم، أن نواصل السير رغم الصعاب والعثرات والإخفاقات والحماقات والهزائم الضرورية أو المجانية. كانوا مصابيح اليقين الكاشفة حين تلفنا الظلمات المتكاثفة.

كنت محظوظًا بنور نقي بهي من شموس الأنبياء والصالحين وأقمار الأبطال والشهداء، ومصابيح المفكرين والمبدعين خصوصًا الشعراء، وشموع البسطاء من ملايين الرجال والنساء، الآباء والأبناء، الملايين الذين يجترحون كل يوم معجزة البقاء على قيد الحياة والأمل، هؤلاء هم الشعب القائد والمعلم كما تلقيت عن شيخي وسيدي وزعيمي جمال عبد الناصر ناصر الفقراء. وهي مقولة جربت صدقها واطمأن قلبي عبر ثمن فادح من العرق والدمع والدم والتضحيات الجسورة والعزم الماضي والقوة التي لا تقهر، التي يختزنها ويظهرها حين يقرر هذا الشعب القائد المعلم بأبطاله العظماء المجهولين المنسيين الذين ينزوون في الظل، لكن نورهم الذي لا يغيب كان ويبقى كافيًا ووافيًا للانتصار على الظلام، ومطاردة أشباحه وخفافيشه.

وكان رفاق الرحلة هم أقرب وألصق ينابيع النور، وكنت محظوظًا أن وجدت نفسي وسط هذه الكتيبة الحالمة الواعية المثابرة التي تأسست مطلع ووسط السبعينيات وشقت طريقها الطويل نحو الغايات البعيدة التي آمنت بحق أمتنا في الوصول إليها: الحرية والاشتراكية والوحدة.

بين ينابيع النور التي جسدها هؤلاء الإخوة رفاق الطريق النبلاء، كان «محمد بدر الدين» نجمًا هاديًا بيننا وكثيرًا ما تألق ليكون ـ ولكل من اسمه نصيب ـ بدرًا مكتملًا يضيء جماعتنا الصغيرة ويعيننا على الاعتصام بحلمنا الكبير.

وما يصدق على محمد بدر الدين يصدق على عديدين كانوا جميعًا نبلاء، لكنه استحق عندي أفعل التفضيل.

ووجدتني عبر رحلة السنين مطمئنًا أقول لنفسي، والآن لكم، أن من بين أبناء جيلي وإخوة حلمي ورفاق طريقي وشركاء رحلتي فإن محمد بدر الدين هو الأنبل.

جئنا في لحظة افتراق صعب بعد رحيل الزعيم عبد الناصر، بين دولة شكلت ملامح الحلم العربي لصالح أوسع طبقات الشعب وسعت لتحقيقه، ودولة بدأت نسج خيوط الكابوس على حساب الشعب. فأسهمنا في تأسيس ناصرية جديدة لا تحتمي بكراسي السلطة، بل تسعى بين الناس، وتستمد منهم مشروعيتها وجدارتها للنضال في صفوفهم خارج السلطة.

كان محمد بدر الدين ضمن هذه الطليعة المؤسسة.

اجتهدنا في صياغة الناصرية نظرية ثورية، ومشروعًا حضاريًا، يستند على منجزات التجربة الهائلة ويتعلم منها لكن لا يتقيد بتطبيقاتها، ولا يعيد إنتاج ما لحق بها ككل تجربة إنسانية من نقاط ضعف وأخطاء في التطبيق.

وكان محمد بدر الدين في قلب هذا الاجتهاد النظري يرقى بالحوار ويبلور الأفكار.

بنينا أشكالًا تنظيمية سرية وعلنية، أصابت وأخطأت وحققت وأخفقت. وكان محمد بدر الدين مناضلًا في الصفوف الأولى يبشر وينظم، ويتحمل المسئولية ويدفع الضريبة راضيًا مرضيًا.

في كل هذه المهام والأدوار وما تفرع عنها وترتب عليها، كان الفتى/ الشاب/ الرجل محمد بدر الدين في قلب الحلم وفي مقدمة الفعل، لكنه أبدًا لم يطلب لنفسه شيئًا، كفارس نبيل يخوض الوغى ويعف عن المغنم.

لمعت أسماء شاركته دون أن تَفضله، وتصدرت المشهد سياسيًا أو إعلاميًا، وهو راضٍ مطمئن مكتفٍ بفضائله.

وأدركت عن قرب ما فيه من تواضع وكبرياء وتعفف. بعض سجاياه، هذه القدرة على الاكتفاء والاستغناء وتعفف المستعلي وتواضع الكبرياء، لمستها في مسيرته السياسية والمهنية، وأيقنتها باقترابي من أسرته الكبيرة في مدينة المنصورة، وأسرته الصغيرة حين تزوج «رباب يحيى» المناضلة الصلبة، وشاركته البحث عن شقة الزوجية في بيت يحمل عبق تاريخ القاهرة في رحاب رئيسة الديوان السيدة زينب ويضيق بكتبه، ومسودات كتبه، ثم يتسع لأبنائهما الثلاثة «حمدين وناصر ونديم»، وعايشت إيقاعه الوئيد المتأني المتمهل المدقق في كل حركة وسكنة، وفي كل لفظ وجملة، والتزامه الأخلاقي الصارم الذي لا يتسامح مع شبهة ابتذال ولو في النكتة. وهذه الرصانة التي تتجلى في كتابته المنحوتة من صخر لا المنهولة من بحر وفي تقاطيع وجهه كأنه يبعث تمثالًا فرعونيًا مهيبًا.

محمد بدر الدين، أنبلنا، نموذج للقوة الأخلاقية التي تفرض مهابتها المستمدة من قيمتها، لا من موقع ولا سلطة ولا مال ولا شهرة.

إخوة الحلم عبر الطريق الطويل الذين عرفوه عن قرب، وهم كُثُر، يدركون أن كلماتي هذه لا توفيه حقه... أما الذين لا يعرفونه، وهم أكثر، فقد يحسبونه أحد أقراني أو أنصاري، والحق أقول لكم، إن أخي الأنبل محمد بدر الدين ضمن قلة معدودة حباني الله بها... أختص منهم بالذكر الآن الدكتور عزازي علي عزازي، الذي يصارع ببسالة تليق به مرضًا عضالًا وغيبوبة طالت بعد جراحة كبرى في الصين، هذا البعيد في المسافة الساكن في قلوبنا، وعلى ألسنتنا اللاهجة بالدعاء لله أن يمن علينا بشفائه وأن يكرمنا فيه كما أكرمنا به.

هذه القلة وفي قلبها «عزازي» و«محمد بدر الدين»، هم في حقيقة شعوري سادتي وقادتي، ولست في حضرتهم الذكية إلا واحدًا من عارفي فضلهم ومريديهم ومحبيهم والمقتدين بهم والمهتدين بنورهم.

يعذرني القارئ وأخي الأنبل أن خصصت هذي المساحة للكاتب، أما الكتاب عن الناصرية ونهجها وثورتنا المتصلة بموجتيها 25 يناير / 30 يونيو، وأفقها المفتوح حتى اكتمال النصر والذي حددته الجماهير بهتافاتها في الميادين، والتي كانت إحياء جديدًا للناصرية وتأكيدًا أن مشروع عبد الناصر هو مطلب الأمة في مستقبلها، بقدر ما كانت تجربته أهم إضاءات تاريخها الحديث.

هذه الآراء والأفكار التى يطرحها الكاتب بتدقيق ورصانة وصرامة مبدئية، لا أملك بشأنها إلا أن أضع توقيعي عليها بجوار الأنبل، الذى كتبها بصدق وإيمان وفخر مستحق بثورة عظيمة لشعب عظيم، وأمل مستحق في مستقبل تنتصر فيه الثورة وتسود الفكرة ويتجسد الحلم.

آثرت التركيز على الكاتب لأقول للقارئ أن كل جملة ولفظة يقرأها في هذا الكتاب هي صدى صادق لهذا الكاتب الصادق.

أما أخي الأنبل محمد بدر الدين فأشكره على ما أضاءه لقارئه، كما أضاء لنا على امتداد رحلة هذه العقود. وإن ما طرحه من مهام لاستكمال الثورة وتوحيد وتنظيم الحركة الناصرية، سيجد جيلًا جديدًا ثوريًا واعيًا.

فيه من صلابتك وقوتك الأخلاقية، ما يُمَكِّنه من إنجاز ما تدعو إليه وتطالبه به.

وبهذا الجيل أيها الأخ الأنبل سيكتمل الطريق الصعب الشائق الشائك ويصل غايته.

ولسوف نرى، أو يرون، حلمنا يتجسد.

قَالَ تَعَالَىٰ: أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ الضحي 5

حمدين صباحي

obeikandl.com

بـدءًا

(زمن البراءة.. وقصة إهداء!)

إهداء هذا الكتاب الذي بين يديك، تأخر قرابة ثلاثين سنة، فنص هذا الإهداء ـ تقريبًا ـ هو إهداء أول كتاب لي.. لكنه كتاب لم يقدر له أن يصدر قط، ولن يصدر أبدًا.. لأني فقدته نهائيًا!.

ولم أرِ هذه القصة من قبل إلا نادرًا، وربما كان أهم سبب يفسر ذلك هو أني اكتفيت بكوني رويتها كاملة ـ وفي وقتها ـ لأهم طرف في القصة.. أي للرمز ومثلي الأعلى نفسه، الذي أهديت إليه الكتاب: الأستاذ محمد حسنين هيكل.

أما الكتاب الذي فقدته نهائيًا، فإنه أول كتاب انتهيت من تأليفه ـ حتى صار جاهزًا للنشر ـ وكان كتابًا سياسيًا معارضًا بعنوان: «في مصر الثورة.. ومصر الردة».

لكنه كان أول ما وجدته بسهولة ـ واستولت عليه ـ قوة الأمن التي قامت باعتقالي من بيتي في مدينة المنصورة في يوليو سنة 1980، لأن مخطوطة الكتاب كانت ظاهرة جلية على منضدة «غرفة الصالون»، إذ قبلها في نفس الأسبوع كنت بدأت أُطْلِع عليها صديقي «عبد الحليم قنديل» لأسمع ملاحظاته.. (وهو لم يكن زميل دراسة فقد تخرجت من كلية الحقوق بجامعة المنصورة بينما هو خريج كلية الطب بها، لكن جمعت بيننا الصداقة والرؤية الفكرية والسياسية والانتماء إلى «نادي الفكر الناصري» بهذه الجامعة).

وقد اعتبرت أن أسوأ ما حصل لي في ذلك الاعتقال هو ضياع هذا الكتاب إلى الأبد، بل ظللت أعتبره لزمان ممتد كفقد ابن بالضبط!.

obeikandl.com

إلى جانب مخطوطة الكتاب، أخذوا أوراقًا وخواطر أخرى لي، وبعض مجلات حائط احتفظت بها، مما كنت أكتبه منذ بداية دخولي الجامعة بانتظام وبكثرة، وأقف وأناقش أمامها لساعات طويلة في كليتي.. وقد كانوا يفتشون في تلك الليلة بقسوة وهمجية مجنونة غريبة، بدءًا من الدخول بكسر باب الشقة في نحو الثالثة ليلًا من دون أي انتظار لفتحه، مع إثارة ذعر واسع ـ بعربتهم وجندهم ـ في الشارع، وفي بيتنا حيث أمي، وأختي وأخوي الذين يصغرونني (فيما كان الأب قد غادر حياتنا الدنيا بغتة قبل قليل من السنوات)، وفي تلك الليلة (التي وصفتها في دفتر ملاحظاتي لاحقًا: بليلة التَّتَر في بيتنا)، داهموا أيضًا في القاهرة بيت حمدين صباحي واعتقلوه، وبيت عبد الحليم قنديل في بلدته كفر الطويلة بالدقهلية فلم يجدوه.. وعددًا آخر في القاهرة والمنصورة وغيرهما (ومن الدقهلية ضمن من وجدتهم معي في الزنزانة علاء عبد الوهاب الكاتب الصحفي حاليًا بـ «الأخبار» الذي اعتقلوه من ميت غمر، والطبيب سمير عبد الحكيم من أجا...).

واتضح لنا فيما بعد أن العنف الغاشم المحموم، في التفتيش والاعتقال، كان أول أسبابه أنهم يعتقلوننا بتهمة: (تأسيس تنظيم ناصري لقلب نظام الحكم)، وأن هذا التنظيم يحتمل أو يبدو حسب معلوماتهم أنه تنظيم «مسلح».. فكانوا يفتشون بالإضافة إلى الأوراق أو المنشورات ـ وقبلهما ـ عن «الأسلحة»!.

ولم تتحول إلى «قضية» ومحاكمة قط، «ليلة التتر في بيتنا»، بكل ما جرى.. من مبيت في قسم الشرطة ـ في مكان بشع يدخل في صور التعذيب ـ ثم التحقيقات في مقر أمن الدولة، والمثول أمام النيابة، فزنزانة سجن المنصورة (المغلقة لا تفتح أبدًا بخلاف الزنازين الأخرى إلى أن بدأنا إضرابًا عن الطعام).. لم تتحول إلى محكمة وملفات قضية، لي أو لغيري، لأنهم لم يجدوا عند أحد شيئًا، ولم تكن لديهم أدلة على شيء! إنما هي سلطات القمع وانفلات أعصاب النظام ورئيسه في مرحلة «كامب ديفيد»!.. حيث وصل ذلك إلى ذروته، وبلغ الجنون مداه، في «اعتقالات سبتمبر 1981» ـ أي خريف العام التالي ـ والتي لم تترك رمزًا أو معارضًا سياسيًا بارزًا في البلاد إلا واعتقلته!.

لكن الطريف ـ ربما ـ أنه مما عقد المسألة بالنسبة لي لبعض الوقت، أنهم وجدوا بين أوراقي وخواطري ورقة كنت أضع فيها «أحلامي»! .. وأتخيل فيها أحسن أسماء يمكن أن تحكم مصر في ذلك الحين وفي كل مجال، من رئيس الجمهورية إلى وزراء ومناصب رئيسية، وقد اعتبروا أن تلك الأسماء هي أسماء التنظيم السري الذي يعد لقلب نظام الحكم! .. أو على الأقل: هذه هي حكومة الثورة أو «الانقلاب» التي ينوي التنظيم إعلانها فور نجاح الحركة أو «المؤامرة»!.

وكان أول الأسماء وفي موقع رئيس الجمهورية «محمد حسنين هيكل»، وكان «فتحي رضوان» ضمن الأسماء في المقدمة ربما لرئاسة الوزراء أو لمهمة أساسية، وذكرت لنوعية وزارات الاقتصاد والتنمية والتخطيط أسماء «إسماعيل صبري عبد الله» و«فؤاد مرسي» و«عادل حسين» (الذين تعرفت على فكرهم وقيمتهم في ذلك الوقت ـ حتى قبل قراءة كتبهم أو الإلمام بسيرهم ـ من دراساتهم اللافتة في مجلة «الطليعة»)، ومعهم «عزيز صدقي»، وكان «أمين هويدي» للداخلية أو المخابرات باعتبار تجربته الراقية بعد 1967، وكان لوزارة الإعلام «أحمد بهاء الدين» أو «كامل زهيري»، ولوزارة الثقافة ومؤسساتها «رجاء النقاش» و«صلاح جاهين» و«سمير فريد»، وللشئون الاجتماعية «أمل محمود».. (التي صدمنا رحيلها مبكرًا في مايو 2013، وكانت عندي باستمرار رمزًا لحركة وتعبيرًا عن حيوية وروح جيل السبعينيات، وكانت الحركة الناصرية التي تنتمي إليها تموج في ذلك العقد بجيل شابات متحمسات بقدر ما هن على كفاءة عالية مثل «أمل».. إنهن جيل البناءات النبيلات إلى جانب الرجال للحركة الناصرية في مصر.. وذلك على أي حال جزء من ظاهرة جيل السبعينيات الاستثنائي، الذي يستحق دراسة وبحثًا متعمقًا أكثر مما أنجز).

بل وتمنيت في ورقي اسم «عصمت سيف الدولة» باعتباره رمزًا هائلًا من رموز الفكر القومي، على رأس كيان تنظيمي عروبي كبير يتأسس، أو حتى جامعة الدول العربية «من أجل تطويرها بل تثويرها إن أمكن!»، وطبعًا الفريق «سعد الدين الشاذلي» على رأس القوات المسلحة!.

إنها مرحلة وسن: رسم الكون كما نود.. !.

وقد سُئِلتُ عن هذه الأسماء وغيرها، في التحقيقات المطولة، ولم يدركوا بسهولة أن هذه تمنيات وتصورات فتى مصري، لمستوى وطراز ما يجب أن يكون عليه كل من يتولى أمرًا في البلاد، للنهوض بها، وأنها ليست ورقة بأسماء التنظيم الانقلابي السري الذي يتهدد أو يتوعد نظام الحكم في مصر!.

والحق كذلك أنها كانت ضمن كثير جدًا من تمنيات وتصورات فتى يعتقد بأهمية ودقة المقولة المعروفة منذ السبعينيات لعميد الدبلوماسية المصرية الدكتور محمود فوزي، الذي يذهب فيها إلى أن مشكلتنا منذ ذلك الوقت: «أن الحوادث كبيرة والرجال صغار!».

فتى رافض بشدة لما حاق ببلاده، على يد سلطات السادات وحلف الشرائح الطبقية الرجعية التابعة الذي يتزعمه، ولعهد الردة المصرية والانهيار العربي، الذي «خان» ـ بكل ما بالكلمة من معانٍ ـ طريق الاستقلال الوطني والكفاية والعدل الاجتماعي وتحرير وتوحيد الأمة، الذي انتهجته ثورة يوليو الناصرية، امتدادًا وتتويجًا لكل كفاح الحركة الوطنية الطويل ومعاركها الضارية قبل 23 يوليو 1952.

وبطبيعة الحال فقد كان هذا «التفكير والموقف»، جزءًا من جوهر الرؤية، و«صورة من تفكيرنا»، في الكتاب الذي كتب ولم يصدر... وإنما صودر بالطريقة التي جرت في «ليلة التتر في بيتنا»!.

ثم حكيت للأستاذ محمد حسنين هيكل هذه القصة بالكامل... بعد خروجي من سجن المنصورة ببضعة أسابيع.. !.

وكنت بدأت أزور الأستاذ في بيته بالقاهرة ابتداء من «فبراير سنة 1974»، أي في الشهر نفسه الذي أخرجه فيه السادات من رئاسته لجريدة ومؤسسة «الأهرام» (2 فبراير)، فقد سافرت من مدينتي المنصورة إلى القاهرة، وسألت عن مسكنه، وما أن عرفت أنه يقيم في عمارة على بابها تسمية «جوهرة النيل»، وشقة المكتب إلى جانب شقة السكن في الدور نفسه ـ عمارة مجاورة لفندق «شيراتون» إلخ! ـ حتى

ذهبت إليه لأطمئن عليه، فقد كان ذلك بالنسبة لي ـ وطبعًا لغيري ـ حدثًا جللًا، بل جنونًا كاملًا؛ هذا الذي أقدم عليه السادات!.

واستقبلني الأستاذ هيكل مرحبًا ودودًا، راقيًا رقيقًا، كما توقعت.. حانيًا محبًا للناس، وربما على الأخص لجيل جديد طالع ويتقدم.

ولقد دهشت لليسر ـ أو «التيسير» ـ الذي تم به هذا كله.

ولعلي أدهش اليوم أكثر، حينما أتذكر! لكن يبدو لي كأول ما يفسر: أن زمن البراءة لا يقف أمامه شيء.

أو «عصر البراءة».. على حد تعبير أحد الأفلام الجميلة الآسرة والمفضلة لدي، للمخرج العالمي المبدع مارتن سيكورسيزي، وهو عنوان هذه التحفة السينمائية (1993) التي تتصدر أعماله.

في ذلك النهار من فبراير سألت أستاذنا هيكل: «هل فاجأك القرار؟».. فقال باسمًا للفتى، ومعلمًا أيضًا: «هل يمكن ألا أعرف وأتوقع؟ .. كانت توجد مقدمات، وهناك خلافات بيننا حول قضايا مما يجعلني لا أفاجأ..». وطاف الكلام بسرعة أمام بعض تلك القضايا ـ التي اختلف فيها مع السادات ـ ابتداءً من الموقف إزاء حركة ومظاهرات الشباب.. إلى معالجة ومسار السياسة بعد حرب أكتوبر.. بل كان الخلاف واضحًا حتى في مقالاته الأسبوعية «بصراحة» آنذاك، خاصة الأخيرة، التي كان آخرها بعنوان «البريق.. والظلال».

وأذكر مما قلتُ له:

- لاحظت أنك كتبت، بل كررت، في مقالات «بصراحة» بعد الحرب عبارتك: «إن بطل حرب أكتوبر الحقيقي هو الإنسان العربي العادي».. وتساءلت كيف يكون وقعها على «السادات»، وسط ما نراه ونسمعه من تطبيل وتهليل في إعلامه، لا يتوقف ليل نهار».

قال الأستاذ هيكل:

obeikandi.com

- ملاحظتك في محلها.. هذه العبارة أيضًا كانت مما ضايقه!.

وقد كنت أتجه من دورات «لقاء ناصر الفكري، في سبتمبر من كل عام» بجامعة عين شمس - التي يجتمع فيها كل الطلاب الناصريين - (وآخرها سبتمبر 1976، سبتمبر 1977).. إلى بيت الأستاذ هيكل.

ولاحظت أنه كان عندئذ يستوضح أكثر مما كنت أطرح من تساؤل أو استفسار، وكنت أسعد بذلك كثيرًا، لأني كنت حريصًا - وأشعر أنه مهتم حريص - على أن يصل إليه نبض وروح جيل جديد، وكيف يفكر؟.. إلى أي مدى عازم على أن يواجه، ويقاوم ويثابر؟.

وقد استمرت سعادتي بالتواصل مع «أستاذنا» طول الوقت، من «زمن البراءة» ذاك إلى الآن، أدامه الله ومتعه بوافر الصحة والعافية، ومقدرته على هذا العطاء الفريد. وبطبيعة الحال - وخصوصًا بطابعي أيضًا! - كنت كلما عرفت أنه مشغول بشيء أو يعد لكتاب جديد، أقترب أقل - بقدر ما أتابع بدقة - وقد كان من ذرى ما كتب خلال الثمانينيات والتسعينيات موسوعته الكبرى، أي مشروعه فائق الأهمية، والتدقيق والتميز، في كتابة التاريخ الحديث لمصر وأمتها: رباعية «حرب الثلاثين سنة»، ثم كتاب «حرب الخليج» في التسعينيات الذي أعتبره - من جهتي - متممًا للموسوعة فأصبحت «خماسية».

لكني كم رجوته - سواء مباشرة أو في مقالات وبعمودي في جريدة «العربي» - قلت وكتبت متمنيًا: إن الأستاذ هيكل، بكتبه، كمن شيد صرحًا فريدًا أو قصرًا باهرًا، لكن تظل تنقصه «لبنتان»: كتاب فيه سيرة حياته شخصيًا، وكتاب فيه سيرة حياة جمال عبد الناصر الإنسان.. فمن غيره، ومن مثله، يكتبهما؟!.

ومن يدري.. ربما تكون مفاجآت؟.

كما أشرت فإني حكيت للأستاذ محمد حسنين هيكل قصة ما حدث لكتابي «في مصر الثورة.. ومصر الردة» وضياعه، وذلك بعد خروجي من سجن المنصورة بأسابيع معدودة.

وكان ممتنًا للإهداء، وآسفًا لحزني الواضح لفقد الكتاب.. ثم فاجأني باسمًا بسؤاله الطريف ـ ربما للتخفيف ـ مشيرًا إلى عنوانه:

- حمدًا لله على السلامة.. وأين كان يمكن أن يصدر مثل هذا الكتاب.. في «مصر الردة» أم «مصر الثورة»...

فعقبت (ولم يكن يخطر ببال أن بعدها ببضعة شهور فقط سيكون «هيكل» نفسه على رأس معتقلي 1981/9/5 من رموز وكبار المعارضين!):

كنت سأحاول أن أصدره في «مصر الردة» هذه! كما حاول معارضون لها ولم يتمكنوا، وإن تمكن البعض القليل من إصدار كتب رغم القصف والمصادرات المستمرة.. أما «مصر الثورة» فلن تضيع نهائيًا مثل كتابي، بل ستعود يومًا.. وبإذن الله قريبًا..».

نعم. كان هذا اعتقاد، بل يقين، جيلنا دائمًا: «ستعود مصر الثورة.. قريبًا».

كان ذلك هو الأمر المستقر في ضمير ووجدان وإيمان جيل. إنه كما يعرف: «جيل السبعينيات».. أو كما كنت أميل عادة إلى القول بأنني أنتمي إلى «جيل 77».

باعتبار أن انتفاضة 18و19 يناير 1977 هي أول حدث ثوري ضخم شاركت فيه وكثيرون.. (أو لعلها «دفعات» لجيل السبعينيات: دفعة بدأ تفتحها وجهدها العام ضمن «شباب 1968»، وأخرى في حركة «1972»... وثالثة مع انتفاضة «1977»).

وقد تحقق بالفعل الشق الأول من اعتقاد وتيقن «جيل 77»، أو «جيل السبعينيات.. بدفعاته»: أي «قيام الثورة».

لكن لم يتحقق مع الأسف الشديد الشق الثاني من ذلك الاعتقاد واليقين: أي.. «قريبًا»!.

فقد قامت الثورة، بل مرتين، وخلال سنتين ونصف سنة فقط، في (25 يناير 2011 ـ 30 يونيو 2013)، وعلى أجمل وأرقى وجه شعبي ثوري إنساني حضاري.

وإن تحقق ذلك بعد أربعة عقود كاملة!

obeikandl.com

أما ما حدث بعد (25 يناير ـ 30 يونيو)، ولا يزال، من تداعيات وتطورات سريعة مستمرة، بالإيجابي الرائع فيها وبالسلبي الضاري في آن.. فتلك قصة أخرى بطبيعة الحال!.

فصول الكتاب:

أما هذا الكتاب: «الناصرية.. والجمهورية الثالثة»، فيتناول قضايا بارزة بينها ما كان مطروحًا منذ أمد، وبينها ما هو مثار الآن بشدة، خاصة في الآونة منذ الانفجار الثوري الشعبي التاريخي (ثورة 25 يناير 2011)، حتى الآن.

قضايا حول الناصرية، برؤى تنصفها أو تعاديها .. ومن خلال مناقشتنا تلك القضايا نقدم تعرفًا على الناصرية ـ أو تعريفًا بها ـ بدءًا من تسمية «الناصرية» ذاتها، لمن يطلب أو يتساءل اليوم، خاصة من أجيال مصرية ـ عربية جديدة، تستفهم وتستفسر هنا وهنالك، ومن حقها أن تجد دائمًا إجابات بجدية واحترام، من جميع الاتجاهات.

كما نقدم نظرة مقارنة بتركيز وبساطة ـ من دون تبسيط ـ بين الناصرية (الفكر والنهج، الطريق والتيار)، وغيرها من التيارات السياسية ـ الفكرية الرئيسية في الواقع المصري / العربي اليوم، وإطلالة على التأثير والتأثر المتبادل فيما بينها.

ونقدم رؤية للوطن والأمة، المسيرة والمسارات، ما بين عصر 23 يوليو، وفجر 25 يناير ـ 30 يونيو. ونقدم تناولًا وإجابات مقترحة في قضايا وتساؤلات تتعلق بالبرنامج السياسي وبنظرية الثورة وبالمنهج، وبمسألة التنظيم .. أي أبعاد وزوايا في المسألتين الرئيسيتين للفكر والتيار الناصري: التنظير والتنظيم.. أو التأصيل النظري والأداة التنظيمية.

ومن قبل وبعد، تهتم فصول الكتاب العشرة بسؤال: «الناصرية والواقع الحاضر والآفاق المستقبلية»: هل الناصرية ونهجها الآن ضرورة؟ .. هل هي احتياج متجدد؟ .. إلى أي مدى؟ .. وفيمَ بالضبط؟.

إن الإجابة (بصيغة أو بروح الشعار إن شئنا، الذي قد يعبر ويختصر):

نعم. نهج جمال عبد الناصر: هو المستقبل.. والطريق إلى أهداف ثورة يوليو الناصرية والثورة العربية في الحاضر.

لكن الأهم يظل، هو: لماذا؟ وكيف؟ ما العمل؟ إلى أين من هنا؟.

الأهم الآن هو الأسئلة الصحيحة والإجابات الوافية، في هذه الأصعدة والساحات.

أجل الساحات .. أوليس ما نمر به، ونسميه «الجمهورية الثالثة»، التي لا بديل عن تأسيسها، بعد الجمهورية الأولى (الثورية 1952 ـ 1973)، والجمهورية الثانية (جمهورية القوى المضادة للثورة التي أسسها السادات، وكرسها مبارك، وواصلها الإخوان)... أوليست هذه ساحة ومعركة .. بل ساحة الساحات ومعركة المعارك!.

ملحق الكتاب:

مما يبدو لنا، أن قراءة عناوين «فهرس» هذا الكتاب، تكفي ـ أو تكفل إلى حد معقول ـ أن يعرف قارئ الكتاب قضاياه وطبيعته، وربما روحه وطريقته، لأن عناوين فصوله العشرة يغلب عليها الوضوح الكامل ـ لا يطالها غموض شديد أو تطمسها مسحة أدب ولا شطحة تفلسف! كما أن معظمها له عنوان أساسي وآخر فرعي أو تفصيلي أكثر .. لكننا نحب هنا أن نشير إلى أن بالكتاب في الختام ملحقًا يتضمن أربعة نصوص:

أولًا: نص يتعلق بقضية يناقشها الفصل العاشر، فنحن ندعو في هذا الفصل القوى الناصرية خاصة والحركة الوطنية عامة، إلى تحقيق وعد ووصية «جمال عبد الناصر» منذ (نصف قرن) بوجوب: «إعادة النظر في الميثاق بعد عشر سنوات»... وهي المهمة التي لم يمهله القدر ليقوم بها ويقودها.

ونداؤنا هنا: فلننجز اليوم الإبداع النظري ـ البرنامجي الضروري: (إعادة النظر في الميثاق بعد نصف قرن).

وقد كان جمال عبد الناصر يقول عادة: «إن الميثاق عبارة عن جانبين.. أفكارنا ومبادئنا الأساسية، وبرنامج العمل الوطني». أي التأصيل النظري وأسس النظرية الثورية، والبرنامج المحدد السياسي ـ الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ الثقافي.

وكاتب هذه السطور يجتهد فيقدم في ملحق الكتاب نصًا مقترحًا لأحد أبواب «إعادة النظر في الميثاق بعد نصف قرن»، المطلوبة والواجبة الآن، ويخص الباب بالنظر والقراءة حدث (25 يناير 2011 ـ 30 يونيو 2013): باعتباره أعظم حدث في بلادنا على الإطلاق، منذ انتهى عصر جمال عبد الناصر في 6 أكتوبر 1973 (معركة التحرير التي أعد لها عبر معركة الاستنزاف الضارية ـ «حرب الألف يوم» ـ بصرف النظر عن المآلات والسياسات التي أجهضت بعد ذلك أو قطعت الطريق!).

وباعتبار اللغط والمغالطات الفادحة والخبيثة ـ في الداخل والخارج ـ حتى إزاء حدث بقيمة (25 يناير ـ 30 يونيو)، جديد معاش وبهذا الوضوح والجلاء!.

وباعتبار أننا نواصل من خلال ذلك ونحاول، اجتهادًا متواضعًا جدًا على طريق الجهد العظيم للميثاق في أبوابه الأولى، بتحليله الموضوعي للتاريخ الحديث والمعاصر، وتقويمه العلمي منذ «جذور النضال»، استخلاصًا للدروس الكبرى، وبلورة للمفاهيم النظرية الرئيسية... وأخيرًا وأساسًا باعتبار أن التاريخ علم فهم المستقبل.

إن نصنا: أي هذا التناول والقراءة في «25 يناير ـ 30 يونيو» (أو أبعاد في الميلاد الصعب للثورة الجديدة، التي تجدد ثورة 23 يوليو وتبدأ من حيث انتهت، وتؤسس لجمهورية الثورة الجديدة «الجمهورية الثالثة».. هذا النص المقترح نضيفه للملحق، ليكون فحسب مجرد «تشجيع» و«طريقة في الدعوة»... من أجل أن يسهم الكافة ابتداءً من الآن في صياغة ـ أو على الأقل التفكير الجدي في إنجاز ـ «إعادة النظر في الميثاق بعد نصف قرن»... (أو الميثاق في معركة تأسيس الجمهورية الثالثة

ـ مثلما كان «بيان 30 مارس» عام 1968 على الدقة: الميثاق في المعركة.. بعد عدوان 1967).

ثانيًا: نص بيان طرحه كاتب هذه السطور، بعنوان «نحو التأسيس الثالث»، ووزعه على نطاق كبير ـ سواء عبر طرق التواصل المعهودة أو الحديثة ـ على مجمل الفصائل والرموز الناصرية في مصر قبيل انقضاء العام الأول على ثورة 25 يناير 2011 (بالتحديد في 23 ديسمبر 2011)، في شأن ضرورة بناء تنظيم ناصري واحد (حزب لكل التيار ـ أو التأسيس الثالث بعد تأسيسين سابقين أخفقا)، في شأن لماذا يجب أن يكون ذلك على نحو عاجل لا يحتمل الإبطاء أو التلكؤ، موضوعي متجرد يتجاوز أية حساسيات أو حسابات.. (وهي قضية يتناول الكتاب أبعادًا فيها كما يعنى بها الفصل العاشر ـ ولعله فصل له أهمية خاصة، بالنسبة لغيره من الفصول).

ثالثًا: رغم كتاباتي الكثيرة والمنتظمة في الصحافة في أحوال مصر وأمتها، قبل وبعد ثورة 25 يناير 2011، فإن المقال الذي راح يلح على خاطري أن أعيد نشر نصه ضمن هذا الملحق.. هو مقال قصير بعنوان: «هؤلاء .. مع الأسف الشديد» (نشر في جريدة «صوت الأمة» 2013/2/11).

ولا أدري ـ حتى الآن ـ لماذا هذا المدى في الإلحاح؟!

رابعًا: ثم نص مقال لي ـ قصير أيضًا ـ بعنوان «رسائل إلى أصدقاء.. في عام آخر من الثورة المتواصلة» (نشر في جريدة «الكرامة» 2013/11/10).

لعلي اعتبرته «خاتمة» ـ ملائمة ـ للكتاب ككل. وهو عشر «خواطر» على جناح السرعة، ضمن ما كنت أكتبه في دفتر ملاحظاتي أو أرسله إلى أصدقاء عبر الهاتف، ما بين نوفمبر 2012 ونوفمبر 2013، أي العام الذي وضعت خلاله هذا الكتاب. فهي خواطر تشير أيضًا إلى الظرف التاريخي ـ أو تعبر عن «الجو» العام ـ الذي سطرت الكتاب في ظله، أو في خضمه!.

اعتذار وشكر:

ويبقى أن أعتذر لأن موجز سيرة ذاتية وضعته في ختام الكتاب، جاء طويلًا نسبيًا.. وعذري أنني لم أنشر شيئًا من ذلك من قبل، وعلى الأرجح لن أنشر مثيلًا لذلك مرة أخرى في كتاب آخر.

كما يبقى أن أعبر عن وافر الشكر والامتنان لزوجتي، وابني الأكبر «حمدين» (الذي دخل منذ أسبوع عامه السادس عشر..)، لمعاونتهما الكبيرة لي في كتابة هذا الكتاب على الكمبيوتر ومراجعته معي، وصبرهما الجميل على محاولاتي من أجل التدقيق أكثر من مرة.. وفي بعض المواضع مرارًا وتكرارًا!.

محمد بدر الدين

القاهرة

أول ديسمبر ٢٠١٣

obeikandl.com